اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

الغزو الفكري

وهم أم حقيقة ؟

للأستاذ

الدكتور / محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إنها واحدة من « القضايا ـ المشكلة » ، التى تشغل العقل العربى المسلم ، ويثور من حولها الجدل ، ويحتدم الخلاف .. فكثيرون هم الذين يحذرون وينذرون من « الغزو الفكرى » وعواقبه ومخاطره .. وكثيرون هم الذين يسفهون من هذا التحذير والإنذار ، منكرين ومستنكرين وجود هذه « القضية » من الأساس ! ..

بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الجدل حول هذه القضية ـ قضية « الغزو الفكرى .. وهم ؟ .. أم حقيقة ؟؟ » ليس خاصية من خصائص الحياة الفكرية لوطن العروبة وعالم الإسلام .. بل هو معلم من معالم الحركة الفكرية فى بلاد « العالم الثالث » ، وكل مواطن الأمم والحضارات التى أصيبت بهيمنة الاستعمار الغربى خلال القرنين الماضيين .. بل لقد ارتفعت وترتفع بالشكوى من « الغزو الفكرى » أصوات فى مواطن العراقة للحضارة الغربية ـ مثل فرنسا ـ محذرة من « الوافد الأمريكي » الذى يهدد بـ « أسلوب الحياة الأمريكية » القيم والأعراف الثقافية التى ترسخت فى القارة الأوروبية منذ عصر نهضتها الحديث ! ..

ولما كان الهم الذي يشغلنا ، والمسئولية التى نجاهد كى نسهم فى حمل تبعاتها .. معنية أساساً بالهم العربى الإسلامى ، وتبعات النهضة العربية الإسلامية ، كان توجهنا هنا ، إلى نظر هذه القضية فى هذا الإطار .. مع إدراكنا أن نتائج هذا النظر حافلة بما يصلح للاستلهام والتعميم ، وخاصة فى مواطن الأمم ذات الحضارات العريقة التى شهدت بلادها هيمنة الغرب الحضارية مع الغزوة الاستعمارية الغربية التى أصابت تلك البلاد فى عصرنا الحديث .

* * *

وإذا كانت الفطرة الإنسانية السليمة ، قد كانت ولا تزال من أقوم السبل وأضمنها وأقصرها لبلوغ الحقيقة فى أعقد القضايا المشكلة .. فإننا سنختار سبيلها لجلاء وجه الحقيقة فى هذا الموضوع .

ولذلك .. فنحن ـ بادىء ذى بدء ـ إذا تصورنا وطناً من الأوطان ، بحدوده « الجغرافية ـ السياسية » ، وشهدنا تحرك جيش هذا الوطن أو مواطنيه داخل هذه الحدود ، فلن يكون ثمة مجال لحديث عن «غزو » لهذا الوطن .. لأن الحركة طبيعية ، فى الإطار الطبيعى ، للحدود الطبيعية .

كذلك ، إذا نحن تصورنا الخريطة السياسية لـ « الدول » التى تقتسم أرض الكوكب الذى عليه

نعيش .. ثم نظرنا إلى حركة « الهواء » وتيارات الرياح ، التى تعبر « حدود » هذه الدول .. وكذلك التيارات المائية التى تأتى إلى « المياه الإقليمية » من « المياه الدولية » .. فلن يتسنى لقائل أن يصف عبور « الهواء والماء » لهذه « الحدود » بأنه « غزو » يستدعى المنع والإنكار والاستنكار ! .

وعند هذا الحد من التصور .. لابد لنا من أن نتساءل ـ كى ندخل إلى موضوعنا ـ : هل « الفكر » ـ على هذا الكوكب الذى نعيش فيه ـ بمثابة « الهواء .. والماء » ، لا يعرف ولا يعترف « بالحدود » ، ومن ثم فإن عبوره ـ سواء أكان بالهدوء أو بالاقتحام ـ لحدود الدول والأوطان ، لا يحمل شيئاً من سمات « الغزو » التى تستدعى المقاومة ؟ .. أم أن هذا الفكر هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن يلزم إطار « وطنه » وحدوده ، فإذا تعدى « الحدود » كان « غزوا » يستحق المقاومة والإجلاء ؟ .. أم أن من هذا « الفكر » ما هو بمثابة « الهواء والماء » ، لا يعرف ولا يعترف بالحدود والسدود والقيود .. ومن ثم فإن عمومه لوجه الكرة الأرضية ، بدولها وأوطانها المتعددة ، لا يعد « غزواً » .. ومنه ما هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن تتخصص حركته وتختص حريته بحدود دولته ، دون أن يتعدى هذه الحدود ؟ !.

وكما حددت « بداهة الفطرة » هذا التصور مدخلاً لقضيتنا ـ قضية « الغزو الفكرى » ـ .. فإنها قادرة ـ بل هى الأقدر والأجدر ـ على قيادة العقل العربى والمسلم إلى أصدق الإجابات على هذا السؤال : « الغزو الفكرى .. وهم ؟ .. أم حقيقة ؟؟ » ..

* * *

والأمر الذى يؤكد جدارة هذا التصور ليكون مدخلاً لبلوغ الحقيقة فى موضوعنا .. أن الذين ينكرون ويستنكرون وجود « الغزو الفكرى » ، معتبرين الحديث عنه مجرد « وهم » من الأوهام ، إنما ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره ـ رغم الحدود الدولية السياسية والحواجز الجغرافية ـ وبسبب من التقدم الهائل فى ثمرات « ثورة الاتصال » ـ ينطلقون من تصورهم لعالم اليوم باعتباره « وطناً واحداً » لـ « حضارة واحدة » ، يسمونها : « حضارة العصر » أو « الحضارة العالمية » أو « الحضارة الإنسانية » ، ويتصورون الأمم والشعوب والقوميات مجرد درجات ومستويات فى البناء الواحد لهذه الحضارة الواحدة .. ومن ثم ، فليس فى هذا التصور حدود ـ لها حرمة الحدود ـ تميز « أوطاناً » متعددة لحضارات متميزة .. ولهذا ، فإن عبور الفكر ـ كل الفكر ـ للحدود ـ كل الحدود ـ ليس فيه ، عندهم ، شبهة « غزو » ولا أثر « عدوان » ! .

أما الذين ينكرون أن يكون عالم اليوم وطناً حضارياً واحداً لحضارة عالمية واحدة ، فإنهم يدعون إلى ضرورة احترام « الحدود الحضارية » .. لأن العالم فى تصورهم ، هو أقرب ما يكون إلى « منتدى عالمى لحضارات متميزة » .. تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى ، ومن ثم فإن بينها ما هو « مشترك حضارى عام » .. وأيضاً ، فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً ، الأمر الذى ينفى الوحدة الحضارية ، ويستدعى الحفاظ على « الهويات » الحضارية المتميزة .. لا لمجرد الحفاظ عليها ـ رغم أهميته ـ إنما لأسباب وطنية ، وقومية ، وعقدية ، تلعب دورها فى إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها ، لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروع ، والطاقات المحركة فى معركة الإبداع .. ولما للتعددية الحضارية من دور فى إثراء مصادر العطاء العالمى ..

وأيضاً لما نلإعتراف بهذهالتعددية من كشف وتعرية لروح الهيمنة والعدوان والاستعلاء ، التى تخفيها الحضارة المتغلبة على عالمنا المعاصر ـ وهى الحضارة الغربية ـ تحت ستار « وحدانيتها .. وعالميتها .. وإنسانيتها » .. ولما لهذا الكشف من دور فى إذكاء روح المقاومة عند الأمم المستضعفة حضارياً ، ضد السمات والقسمات التى مثلت وتمثل « مأزق الحضارة الغربية » ، الذى يمسك اليوم بخناق إنسانها ، وذلك حتى لا تعم مأساته كل بنى الإنسان ؟ ! .

فهنا .. ومنذ البدء .. يرفض الذين يعترفون بوجود « الغزو الفكرى » ، وينبهون على مخاطره ، دعوى « **الوطن الحضارى الواحد لعالمنا المعاصر** » ، ودعوى « **الحضارة العالمية الواحدة** » لهذا الوطن الواحد .. ويقدمون بديلا لها : دعوى أن عالمنا هو أقرب ما يكون إلى « **منتدى عالمى لحضارات متميزة** » .. وأن الأمم المستضعفة حضارياً لابد لها من النضال الحضارى ضد نزعة التفرد والهيمنة التى تمارسها الحضارة الغربية المتغلبة ـ بالاستعمار القديم والجديد ـ على غيرها من الحضارات .. فالتعددية ، لا الواحدية ، هى الحقيقة الممثلة للواقع الحضارى فى الكوكب الذى نعيش عليه .. ومن ثم فإن هناك حالات لنعدى « الحدود الحضارية » ، تمثل « غزواً فكرياً » لا شك فيه ! .

* * *

ويبدو أن « الواقع » ـ مع « الفطرة » ـ ينهض ، هو الآخر ، شاهدا على صدق هذا التصور الأخير ! .

فالذين يعايشون الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنية والتاريخ القديم والتراث العريق .. أو يغوصون فى تراث هذه الأمم وفلسفاتها ومذاهبها وتقاليدها وأعرافها ، يدركون أن عالمنا به ـ حقا ـ أمم متعددة ، تتميز كل منها بشخصيتها القومية والحضارية المتميزة ، وإننا إذا نظرنا فى مذاهب هذه الأمم وأعرافها ، وفى معايير الحلال والحرام والمشروع

والممنوع لدى أبنائها ، وفى موازين الأذواق والحاسة الجمالية ، وفى تصوراتها لمكان الإنسان من الكون ، وتصوراتها لمصيره بعد الموت ، وتصوراتها الفلسفية لهذا الكون وما وراء المادة والطبيعة .. إذا نحن نظرنا إلى مذاهب هذه الأمم فى هذه القضايا الأمهات ، أدركنا السمات التى تمايز بينها ـ جنباً إلى جنب مع سمات تشترك فيها فتجمع بينها ـ واستطعنا ، بسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ، أن نتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى إلى حيث تضرب بجذورها فى أعمق أعماق التاريخ ... ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل : الصين .. والهند .. واليابان ، ستفضى بنا إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية ، والمواريث الحضارية ، وطرائق العيش ، والفلسفة فى الحياة وفى النظرة للكون وتصوره ، لدى شعوب وأمم هذه الحضارات ... وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية ، منذ اليونان وحتى نهضتنها الحديثة .. والحضارة العربية الإسلامية ، منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام ـ بعد الإحياء الإسلامى لهذه المواريث ـ كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى ، الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره الاعتقادية .. وحتى عصر النهضة الذى نتلمس سبله وننسج خيوطه الآن ! .

إنه التمايز الحضارى .. والتعددية الحضارية ، التى لا تنفى واقع « المشترك الإنسانى العام » ، فتقع فى وهم الاختلاف الكامل ، والانغلاق التام ، وتصور علاقات الأمم كما لو كانت تدابراً وإدارة الظهر للغير ، وأسواراً صينية تفصل ما بين الحضارات ... كما أنها لا تنفى واقع « التميز الحضارى » ، الذى يزكى « التعددية » ، وينفى « الواحدية » فى هذا الميدان .

إذن .. فمذهبنا ، الذى نلتزمه ، ونزكيه ، ونبشر به .. هو الذى يتخذ من هذه القضية موقفاً وسطا ... أى عدلا .

● فنحن ننكر تصور العالم : وطنا حضارياً واحداً ، لحضارة واحدة .. وهو تصور الذين ينكرون وجود « الغزو الفكرى » ، ويرونه مجرد « وهم » من الأوهام ..

ونرى ـ كما سيأتى الحديث بعد ـ أن هذا الموقف ـ حتى مع افتراض حسن النية ـ مكرس وموظف لخدمة تمام الانتصار للحضارة الغربية المتغلبة على عالمنا المعاصر ، انتصارها ـ بالمسخ والنسخ والتشويه ـ على الحضارات العريقة التى ابتليت هى وشعوبها وأممها بغزوة الاستعمار الغربى فى عصرنا الحديث ... إنه طريق التبعية الحضارية ، الذى يحولنا إلى « هامش » لحضارة الغرب ، فنفقد خصوصيتنا الحضارية ، ونفتقد تواصلنا

الحضارى ، لنؤب ـ فى النهاية ـ بأوزار المأزق الحضارى الذى يجاهد الغرب ذاته كى يجد السبيل إلى الخلاص منه ! .

● ونحن ننكر ـ أيضاً ـ تصور العالم : حضارات منعزلة تماماً ، ومكتفية بذاتها كلية .. لأن هذا التصور ، فضلاً عن تجاهله لواقع « المشترك الحضارى الإنسانى » ، فإنه يقود الأمم التى تفرض العزلة الحضارية على نفسها إلى ما يشبه « الانتحار الحضارى » ، عبر الجفاف والذبول الذي يقود إليه هذا الطريق ... هذا إذا تصورنا إمكانية سلوك مثل هذا الطريق ، مع ثمرات « ثورة الاتصال » التى تقتحم مغاليق النوافذ والأبواب على الأمم والشعوب ! .

● ونقف ، بين هذين الموقفين ، الموقف « الوسط ـ العدل » .. فنبصر ما هو عام ومشترك في الفكر الإنسانى .. فندعو أمتنا إلى طلبه وتحصيله واستلهامه وتمثله ، لتقوى به ذاتيتها ، وتزدهر به خصوصيتها ، ويشتد به عود تميزها .. مع إدراك سمات الخصوصية الحضارية وقسماتها ، نحددها ، ونشير إلى سبل الحفاظ عليها ودعمها وتنميتها .. استهدافاً لنهضة حديثة ، تمثل الطور المعاصر لحضارتنا العريقة ، وابتغاء لابداع جديد تسهم به أمتنا فى إثراء الفكر الإنسانى المعاصر ، كما

صنعت من قبل فى عصور الإزدهار التى صنعها أسلافنا العظام .

ذلك هو الموقف الذى نجتهد لنقيم عليه الأدلة والبراهين .. الموقف الذى يرى أن من « الفكر » ما هو بمثابة « الجيش » ، لابد وأن تلتزم حركته « الحدود » ، وإلا كانت هذه الحركة « غزوا فكرياً » ، تستوجب الرفض والصد والمقاومة والتحصين .. ومن هذا « الفكر » ما هو بمثابة « الهواء » ، لن يؤدى منعه من عبور « الحدود » ـ على افتراض تصور إمكانية هذا المنع ـ إلا إلى الاختناق ! ..

ذلك هو المدخل ، الذى يمهد بين يدى مبحث هذه « القضية ـ المشكلة » ، التى يدور من حولها الجدل ويحتدم الصراع ، فى وطن العروبة وعالم الإسلام .. على وجه الخصوص .

شهادة الفكر
على
المشترك الإنساني العام
والخصوصية الحضارية

علوم طبيعية عامة ..
وأخرى إنسانية متميزة

نعم .. هناك فى الفكر ، إذا نظرنا إليه على المستوى الإنسانى والعالمى ، سواء أكان إبداعاً للإنسان المعاصر أم ميراثاً وتراثاً لأسلافنا ، فى الحضارات المختلفة .. هناك فى هذا الفكر ما هو « مشترك إنسانى عام » لا يختص بحضارة بذاتها ، أو قومية بعينها ، أو أهل ديانة دون غيرها .. فهو كالماء والهواء ، تحتاجه كل نفس ، وينهض بمهمة الإحياء لدى الناس أجمعين .. ومن هذا الفكر ما يتميز بالخصوصية والاختصاص بإطار حضارى بعينه ، وشخصية قومية بذاتها ، ويقوم الاتساق بينه وبين تكوين عقدى دون سواه .. فيصبح وجوده وفعله طبيعياً فى إطار بعينه ، حتى إذا تعدى هذا الإطار غدا نشازاً وضاراً ، يصطدم بالخصوصيات الطبيعية صدام الجيوش الغازية بالكبرياء الوطنى النافر والمتضرر من عوامل الغزو والقهر والاحتواء .

ولحسن الحظ ، فإن التمييز ـ فى الفكر ـ بين ما هو « مشترك إنسانى » ، وبين ما هو « خصوصية حضارية » ، إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية ، لا تدع مجالاً للبس أو الغموض أو الاعتباط .. **فكل العلوم التى موضوعها الطبيعة وظواهرها والمادة وخصائصها ، هى من قبيل**

الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام ، وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ، ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم ، تلك الحقائق التى هى بنت الدليل ، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين ، ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات .. بل هى واحدة على المستوى الإنسانى ، كما أن موضوعاتها ـ المادة وظواهرها ـ واحدة هى الأخرى ، لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات .. فعلوم مثل الرياضيات ، بفروعها ، ومثل الكيمياء ، والطبيعة ، والطب والچيولوچيا .. لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات .. قد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها ، لكن حقائق علومها ، أى « فكرها العلمى » ، سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات .

ويلتحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية ، الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها ، على نحو ما وإلى حد كبير ، العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات ، التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات .. فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل ، فإن تجارب

الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات ، قد تكون صالحة ، فى أحيان كثيرة ، للاقتباس ـ مع التطويع ـ وللتمثل والاستلهام .. فتجارب الأمم الحرة فى تمييز ممثلى الشعب واختيارهم .. وتراثها فى المؤسسات النيابية والديمقراطية .. وتجاربها فى تحديد الحدود لسلطات الدولة : التنفيذية ، والتشريعية ، والقضائية .. والمؤسسات التى تبلورت على أرضها لتنهض بمهام البحث العلمى والتنوير الثقافى .. الخ .. جميعها تجارب إنسانية ، تمثل سبلا وأدوات وأوعية ، من الممكن الاستفادة منها وبها ، مع تعدد وتمايز المضامين والمثل والغايات .. فسيان أكان الهدف « الديمقراطية الغربية » ، التى تطلق العنان لحاكمية الأمة من أى قيد لأية شريعة إلهية ، أم كان الهدف « الشورى الإسلامية » ، التى تقيد سلطان الأمة بمقاصد الشريعة الإلهية ، فإن خبرات الأمم في المؤسسات النيابية تظل « وعاء » صالحاً كى يؤتى ثماره ، رغم اختلاف المقاصد والمثل والمضامين والغايات التى توضع فى هذا « الوعاء » ، والتى تستهدف من وراء استخدامه .

هذا عن العلوم الطبيعية ، والتجارب المادية ، التى تمثل حقائقها وخبراتها فكراً عالمياً ، هو من صميم « المشترك الإنسانى العام » .

* * *

أما الشق الآخر من « الفكر » ، الذى يدخل فى صميم « الخصوصية الحضارية » ، التى تتمايز بتمايز الحضارات ، فهو ذلك الذى تكون « النفس الإنسانية » موضوعاً لعلومه وفنونه وآدابه .. فهذه « النفس الإنسانية » ، التى تتميز مكوناتها وطبائعها ومفاتيح عوالمها ، بتميز المذاهب والبيئات والفلسفات والمعتقدات ، أى بتمايز الحضارات ، لابد وأن تتمايز علومها ـ سياسة ، واجتماعاً ، وفلسفة ، واقتصاداً سياسياً ـ تبعا لتمايز « مادة » هذه العلوم .. فكما تميزت علوم « المادة » الثابتة بالعالمية ، فغدت حقائقها وقوانينها « مشتركاً إنسانياً عاماً » ... تميزت وتتميز علوم « النفس الإنسانية » بالخصوصية الحضارية ، التى تجعلها وثيقة الصلة بطبائع الأمم ومعتقدات الشعوب ومثلها وطرائقها فى الحياة .

ونحن إذا شئنا أن نضرب الأمثال على تميز العلوم والفنون والآداب إلى هاتين المنظومتين ، ومن ثم تميز فكر كل منظومة منهما عن الأخرى ، وجدنا الأمثال الكثيرة الشاهدة على صدق هذا الذى نقول :

● فالعالم والمثقف المسلم لن يشعر بأى قدر من النفور أو الغربة أوالاستغراب ، إذا هو نظر فى الحقائق والقوانين التى

أبدعتها الحضارة الغربية فى الكيمياء والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والطب والچيولوچيا والطاقة .. الخ .. الخ .. وكذلك عندما يضع حقائق هذه العلوم فى الممارسة والتطبيق .. كما أنه مستطيع ـ دونما حرج أو تعديل ـ أن يبدأ إبداعاته وإضافاته فى ميادين هذه العلوم من حيث انتهى الابداع الغربى في ميادينها ... لأنه هنا أمام « فكر » هو « مشترك إنسانى عام » .

لكن هذا العالم والمثقف لن يجد هذه الألفة عندما ينظر فى كثير من « المكونات الثقافية » ، التى هى طبيعية فى إطارها الغربى .. ففنون الغرب التى لا تحرم العرى ، بل تقيم تماثيله فى الميادين والمتنزهات .. وفلسفات هذا الغرب التى لا تحرم « الحرية الجنسية » طالما خلت من الجبر والإكراه والاغتصاب .. ولا تعيب حرية الزندقة والإلحاد ، ولا الدعوة إليهما والتبشير بهما .. والتى تؤسس علومها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على النزعة المادية ، التى ترى فى الإنسان سيداً لهذ الكون والمحور الحاكم بإطلاق فى هذا الوجود ... هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب .. وما ماثلها ـ لابد وأن تثير فى نفس العالم والمثقف

المسلم من النفور والغربة والغرابة ما لا يجده عندما ينظر فى إبداع الغرب بميادين علوم المادة وظواهر الطبيعة .. لأنه أمام هذه الفلسفات والعلوم الإنسانية والفنون والآداب ، يجد نفسه بإزاء « خصوصية حضارية غربية » ، تتميز عن « الفكر » الموضوعى ، الذى هو « مشترك إنسانى عام » ..

إذن ، فهناك على وجه التحقيق ، فى الفكر الإنسانى ، ما هو « مشترك » .. وما هو « خاص » .. وإذا كان هذا هو القول العام والمجمل .. فلا بد له من التفصيل الذى يضع النقاط على الحروف !